«احترام الذات» و«احتقار الذات» التى تتولد لدى الفرد من خلال تعامله مع الآخرين، واحتكاكه بهم، وتعاطفه معهم[1].

ثالثًا: السلطة والأخلاق

إلى أى حد انتقلت الأفكار الدينية إلى فلسفة الأخلاق؟ وما علاقة الدين كسلطة إلهية تفوق الطبيعة البشرية بماهية الأخلاق؟ وما الكيفية التى يؤثر بها الضمير كأساس داخلى للفكر الفلسفى الأخلاقى؟ وما دور السلطة فى فلسفة الأخلاق؟

ليس من الغريب أن يتناول الباحث فى دراسته موضوع السلطة ضمن عناصر النظرية الأخلاقية، وذلك لأن السياسة والأخلاق متصلتان دون أن تندمجان، فلم يكن أفلاطون يرى بين الواحدة والأخرى سوى فرق درجات السلم. فالعدالة نفسها ينبغى أن تسود الفرد والمدنية، والخير نفسه ينيرها، أعنى بذلك- إخضاع السياسة للأخلاق[2].

من هنا بدأ رسل موضوعه بالبحث فيما تعنيه كلمة «السلطة» authority، فيرى أن هناك ما يسمى بالسلطة البشرية، وكذلك السلطة الدينية، وهى تكون للمتمسكين بالتعاليم الدينية، وأيضًا توجد سلطة الحقيقة، وسلطة الضمير. وفى النظم الأخلاقية التقليدية تتحد جميع السلطات معًا، فتكون السلطة على هيئة «لماذا يجب علي أن أفعل هذا أو ذاك» فنقول «لأنها مشيئة الله، وأن هذا ما يحبذه المجتمع، أو لأن ذلك يكون بمثابة الحقيقة الأبدية التى يجب عليك أن تفعلها، أو قد تكون الإجابة أن ضميرك لو استمعت إليه لوجدته يقول لك: «ينبغى عليك أن تفعل كذا أو لا تفعل كذا»[3].

يرى رسل أن موضوع مناقشة السلطة فى الأخلاق يتبلور فى سؤالين:

(أ) لماذا ينبغى علي أن أفعل ما تقول أنت أنى أفعله؟

(1) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(2) أندريه كونت- سبونفيل: الفلسفة، ترجمة: على أبو ملحم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 2008م، ص ص99-98.

(3) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص105.

(ب) عندما يكون هناك خلاف فى موضوع أخلاقى، كيف نفصل فيه؟

تكمن الإجابات عن التساؤلات المطروحة فى مستويين أحدهما يفوق الطبيعة البشرية، والآخر يكمن فى الطبيعة البشرية وهما كالتالى:

المستوى الأول: السلطة فى الدين:

يناقش رسل السؤال الأول وهو «لماذا ينبغى علي أن أفعل ما تقول أنت أنه يجب علي أن أفعله» فتكون الإجابة بأنها إرادة الله تعالى. وقد يرد الشخص الذى لا يؤمن بهذه الإجابة البسيطة على ذلك بإحدى طريقين، فقد يقول لك: «كيف تعرف أن هذه هى إرادة الله» أو قد يقول: «لماذا يجب علي أن أطيع إرادة الله» والإجابة على السؤال الثانى من هذين السؤالين بسيطة «أن الله قادر على كل شيء، وإذا لم تطع مشيئته فسينزل بك العقاب، بينما إذا أطعته فقد يرسلك إلى الجنة»[1].

إن الإجابة السابقة فى رأى رسل «تفترض اعترافًا بمبدأ اللذة الأنانية Egoistic Hedonism وهو المبدأ القائل بأن كل إنسان عليه أن يحاول الحصول على أكبر قدر من المتعة لنفسه، وقد كانت هذه دائمًا هى تعاليم المسيحية الأصيلة التقليدية»[2]. ويرفض رسل ذلك المبدأ حيث يراه لا يختلف عن مذهب الأخلاقيين الدنيويين فى أية ناحية أخلاقية، ويقتصر الفرق بين المذهبين على موضوع يتعلق بالحقيقة الواقعة، وهى هل إذا فعلت هذا أثاب بالسعادة الأبدية فى الجنة، وإذا فعلت ذاك أعاقب بالعذاب الأبدي فى الجحيم؟ وليس هذا سؤال أخلاقى ومن ثم لم أتعرض له بالمناقشة.

ويعرض رسل لخلافات قد تحدث لدى الدنيويين (كما يطلق عليهم رسل) حول فكرة «مشيئة الله»، فعلى سبيل المثال، يرى البروتستانت أنه مما يتعارض مع المشيئة الإلهية أن يعمل الإنسان يوم الأحد، أما اليهود فيرون يوم السبت هو الذى يعترض الله على العمل فيه، واستمر الخلاف فى هذا الموضوع تسعة عشر قرنا، ولا يعرف رسل فى هذه الحالة أية وسيلة لإنهاء الخلاف، كما يؤكد اليهود والمسلمون أن الله حرم لحم الخنزير، ولكن الهندوس يقولون أن لحم

(1) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص106.
(2) المصدر السابق: نفس الصفحة.

البقر هو المحرم، وقد تصاعد الخلاف فى هذه المسائل لدرجة أن تسببت فى مذابح كثيرة أدت إلى موت مئات الألوف فى السنين الأخيرة، وعليها لا يمكن القول بأن المشيئة الإلهية(*) أو سلطة الدين يمكن أن تهيئ أساسًا لنظام أخلاقى موضوعي[2].

ويؤكد رسل أنه لو كان هناك باحث غير متأثر بالانفعالات الشديدة ويرغب فى التأكد مما تقضى به المشيئة الإلهية، فلن يقتصر على معرفة آراء جيرانه المباشرين، بل عليه أن يرسل قائمة ببعض الأسئلة إلى الزعماء الدينيين فى أنحاء العالم، مادام هؤلاء يدعون أن لديهم المعرفة اللازمة، ولكن أخشى أنه سيجد محاولة اكتشاف نقطة واحدة يتفق فيها الجميع أمرًا فى منتهى الصعوبة، وسيضطر فى النهاية إلى الاعتراف بأن الموضوعية فى الأخلاق شيء لا يمكن الوصول إليه، على الأقل من خلال هذا الطريق[3]، وذلك لأن الدين عند رسل يقوم على الخوف، وبالتالى

(*) لابد من معرفة موقف برتراند رسل من الدين، حيث أن معرفة الموقف الذى تبناه رسل تجاه الدين يجعلنا نعرف الكيفية التى رفض عليها رسل السلطة الدينية كمصدر من مصادر التشريع الأخلاقى، فقد عبر «ول ديورانت» عن الموقف الذى اتخذه رسل تجاه الدين، وهو الموقف المسمى بـ«اللا أدرية والشك» حيث يقول «لقد أدت بدايات رسل فى الرياضيات إلى مصير محتوم من «اللا أدرية والشك» فقد وجد فى المسيحية كثيرًا من الأشياء التى لا تتفق مع ما فى الرياضيات من قواعد ونظريات ثابتة فتخلى عنها باستثناء قانونها الأخلاقى، ولم يستطع رسل أن يجد إلهاً فى مثل هذا العالم المتناقض الذى لا يمكن أن يكون إلا من صنع شيطان ساخر هازل.»

انظر - ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوى، ترجمة / فتح الله محمد المشعشع، منشورات مكتبة المعارف، الطبعة السادسة، بيروت، 1988م، ص586.

وقد أكد رسل ذلك القول بصريح العبارة فى سيرته الذاتية حيث يقول «فلما بلغت الثامنة عشرة من عمري، وقبل التحاقي بجامعة كمبردج وقعت عيني على كتاب لـ»جون ستيوارت مل» هو(سيرته الذاتية) قرأته فلفتت نظرى جملة فيه مؤداها أن والده علمه أن هذا السؤال: من خلقك؟ لا يمكن العثور له على جواب شاف، وذلك لأنه يوحى مباشرة بسؤال آخر: ومن الذى خلق الله؟ وصرفنى هذا عن حكاية «العلة الأولى»، وأصبحت بعدها ملحدًا، ولكنى فى أثناء تلك الفترة الطويلة من الشكوك الدينية كان ينتابنى الشعور بالشقاء والتعاسة، لأني كنت أتخلى تدريجيًا عن عقيدتي، غير أن هذه العملية ما كادت تتم وتصل إلى قرار حتى وجدت لفرط دهشتى أننى مسرور جدًا لأننى تخلصت من الموضوع برمته.»

انظر - برتراند رسل: سيرتي الذاتية، مصدر سابق، ص ص52،53.

(2) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص106.

(3) المصدر السابق: ص108.

فهو شر، وهو كما يقول رسل «عدو للطيبة والذوق فى العالم الحديث» وهو يوجد عند الأقوام التى لم تبلغ بعد نضجها[1].

ولقد أكد عدد من الفلاسفة الخطأ فى الظن بأنه يمكن إقامة الأخلاقية على الوجود الإلهي، وكان رسل خير من عبر عنه بإيجاز ووضوح حيث يقول: «كان اللاهوتيون يعلمون دائماً أن أفعال الله كلها خير، وليس هذا مجرد تحصيل حاصل لكن يلزم أن الخيرية مستقلة منطقيًا عن أفعال الله»[2]. وهنا تبتعد الأخلاق عن الدين فلا تجد فيه منبعًا لها.

والمقصود هنا هو أنه لا يمكن تبرير المعايير الأخلاقية بمجرد اللجوء إلى سلطة عليا سواء كانت إنسانية أو إلهية، بل يجب أن توجد المقدمة الإضافية وهي أن الشخص الذى تطيع أوامره هو خير، أو أن ما يأمر به صواب، وليس هذا مجرد تحصيل حاصل كالقول هو من هو أو أن ما يأمر به هى أوامره[3]. وعليها أكد رسل على أنه كواحد من الناس الذين لا تنبعث لديهم السلطة الأخلاقية من مصدر فوق الطبيعة. أى الميتافيزيقا (الله) فكان رسل يرد الأخلاق إلى الفيزيقا الحية الملموسة أى الطبيعة الحياتية.

المستوى الثانى: سلطة الضمير:

يعد الضمير Conscience الأخلاقى استعدادًا نفسيًا لإدراك الخير والشر، أو الحسن والقبيح من الأفعال، فهو خاصية العقل فى إصدار أحكام معيارية وتلقائية ومباشرة على القيمة الأخلاقية لبعض الأفعال الفردية المعينة، وهو مركب من الخبرات الانفعالية القائمة فى فهم الإنسان للمسئولية الأخلاقية بالنسبة لسلوكه داخل المجتمع، وتقديره الخاص للفعل والسلوك. كما أن الضمير ليس خاصية وراثية فى الإنسان، بل هو يتحدد بموقف الإنسان فى المجتمع وظروف حياته وتربيته وغيرها، وهو وثيق الصلة بالواجب، كما أن يمثل قوة تدفع الإنسان لرفع مستواه الأخلاقى[4].

(1) إ.م. بوشنسكى: الفلسفة المعاصرة فى أوروبا، ترجمة/ عزت قرنى، العدد 165، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت،، 1992م، ص91.

(2) ألفريد جولس آير: المسائل الرئيسية فى الفلسفة، ترجمة / محمود فهمى زيدان، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 1988م، ص262.

(3) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(4) رمضان الصباغ: الأحكام التقويمية فى الجمال والأخلاق، مرجع سابق، ص211.

وحين يتعلق الضمير بالأفعال المقبلة، فإنه يتخذ شكل صوت يأمر أو ينهى، و إذا تعلق بالأفعال الماضية، فإنه يترجم عن نفسه بمشاعر السرور(الرضا) أو الألم (التأنيب). وهذا الضمير يوصف تبعًا للأحوال المختلفة بوصف: الواضح، الغامض، المريب أو المخطئ[1].

أما رسل فيرى أولاً أن الضمير يرجع أولاً، إلى التطور الذى مر به الإنسان، والذى كان لابد بطبيعة الحال أن يكوّن فى الإنسان غرائز المحافظة على النفس، و يرجع ثانيًا، إلى المدنية والتربية التى تدخل تهذيبات كبيرة على فكرة المحافظة على النفس[2].

أما إذا كنا بصدد الحديث عن سلطة الضمير فإن رسل ربط ربطًا وثيقًا بين «المشيئة الإلهية» من جهة و«الضمير» من جهة أخرى، ذلك أن إحدى المشكلات التى ينبغى على أية نظرية أخلاقية أن تتناولها بالبحث والدراسة هى العلاقة بين الطاعة للمشيئة الإلهية من جهة والخضوع لصوت الضمير من جهة أخرى، ورسم صورة لكل مجال من هذين المجالين، و يبن رسل أهمية هذين المجالين فى الفكر الأخلاقى حين يصرح بأن كل واحد من هذين المصدرين للمشاعر الأخلاقية مهما كانت بداياته الفجة يمكن تنميته إلى صور يمكنها التأثير على المتحضرين إلى حد كبير، ولو أننا تجاهلنا أيا من هذين المصدرين، فإن الأخلاق الناتجة عن هذا التجاهل سوف تأتى متحيزة وغير وافية[3].

إن الخلافات حول ما يقضى به الضمير فى فكر رسل هى نفس الخلافات حول مشيئة الله، فليس هناك منهج معترف به لحل هذه الخلافات كما فى مجال العلم، والمنهج الوحيد المعترف به هو «الحكم» بمعناه الواسع. فهناك الحكم الذى يقضى به القانون، وهناك ما يحبذه الجيران أو ما يستهجنونه، و يولد ذلك قدرًا معينًا من الاتفاق بين أعضاء المجتمع ذاته أو الدولة نفسها، ولكنه لا ينتج اتفاقًا يتعدى الحدود أو يمتد إلى ثقافات مختلفة، ومن ثم فليس للضمير ميزة على «مشيئة الله» كأساس للأخلاق[4]. وذلك لكونه أى (الضمير) متوقف فى الجانب الأكبر منه على التربية، (فبما أن العامة من الايرلنديين -على سبيل المثال- لا يعدون الكذب نوعًا من

(1) عبد الرحمن بدوى: الأخلاق النظرية، مرجع سابق، ص51.
(2) برتراند رسل: فلسفتى كيف تطورت، مصدر سابق، ص30.
(3) أحمد الصادق إبراهيم: الأخلاق عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص117.
(4) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص108.

الخطأ) فهذه الحقيقة وحدها تبدو لى كافية تمامًا لنفى ما للضمير من طبيعة إلهية، وما دام الضمير مركب من التطور والتربية، فمن الواضح أن اتباعنا الضمير من دون العقل ضرب من العبث[1].

وبعد مناقشة رسل لموضوع السلطة فى الأخلاق سواءً كانت سلطًة دينيًة أو سلطة الضمير أو غير ذلك من عادات وتقاليد موروثة، يرى أن موضوع الأخلاق كله ناتج عن ضغط المجتمع على الفرد، فالإنسان كمخلوق اجتماعى ليس كاملاً، ولا يشعر دائمًا شعورًا غريزيًا بالرغبات التى تفيد قطيعه، ولما كان القطيع يريد أن تكون تصرفات الفرد متفقة مع مصالحه كمجموعة، فقد ابتكر عدة طرق تؤدى إلى جعل مصلحة الفرد متناسقة مع مصلحة القطيع، وأحد هذه الطرق هى: الحكومة، وثانيها: القانون والعرف، وثالثها: النظام الأخلاقى[2].

ويعد النظام الأخلاقى عند رسل قوة فعالة من خلال طريقين: الطريق الأول من خلال ثناء الجيران والسلطات ولومهم، والطريق الثانى من خلال الثناء على الذات أو لومها وهى التى تسمى بالضمير، وعن طريق هذه القوى فإن مصلحة الجماعة تؤثر فى الفرد، فمن مصلحة الجماعة ألا يُسْرق إنسان، بيد أنه قد يكون من مصلحتى أن أسرق ولا يسرق غيرى، وذلك إذا صرفنا النظر عن القوى التى أشرنا إليها سابقًا، ولا يستطيع اتخاذ هذا الموقف إلا طاغية، والطغاة لا يحبذهم أحد حين يفقدون قوتهم، من هنا كان الهدف من النظام الأخلاقى هو أن يجعل الفرد مستجيبًا لصالح المجتمع، وأن يؤدى إلى تطابق بين صالح الفرد وقطيعه، ذلك التطابق الذى لا يمكن أن يوجد إلا من خلال هذا الطريق[3].

(1) برتراند رسل: فلسفتى كيف تطورت، مصدر سابق، ص31.
(2) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق ص108.
(3) المصدر السابق: ص110.

تعقيب عام

فى ثنايا الصفحات السابقة، قمت بعرضٍ عام لطبيعة القيمة الأخلاقية عند الفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل، وقد تبلورت فيها فلسفة رسل من خلال النزعة المتبعة فى جُلّ فلسفته، ألا وهى النزعة الواقعية التى تحلت بها فلسفة رسل بوجه عام، وهذه النزعة جعلت فلسفة رسل الأخلاقية مصطبغة بالصبغة الاجتماعية، تلك الصبغة التى جعلت أفكار رسل العامة فى الأخلاق قريبة من فكر الإنسان العادى، فهى فلسفة للقارئ العام والمتخصص على السواء.

إنه على الرغم من وضوح أفكار رسل العامة فى الأخلاق، إلا أنها جاءت مشوبة بأفكاره فى التربية والسياسة، فكان من الصعوبة أن نتعرف على الأفكار الأخلاقية دون الرجوع إلى فلسفته السياسية، وكذلك الاتجاهات العامة للتربية والتعليم، فظهر رسل فى ثنايا الصفحات السابقة كأنه فيلسوفًا اجتماعيًا بصفة خاصة، بينما ظهرت اتجاهاته الأخلاقية فى الدور الثانى من اهتماماته الاجتماعية، وهى قريبة إلى حد كبير إلى الأذهان.

ومن الغريب فى فلسفة رسل الأخلاقية أن يتجه بأفكاره السياسية لكى يصوغها تحت اسم الأخلاق، منها على سبيل المثال موضوع السلطة فى الأخلاق، حيث قسم رسل السلطة إلى سلطة إلهية تأتى عن طريق الخوف من الله طمعًا فى دخول الجنة، والبعد عن النار، ولكن بعد تعرض رسل لتحليل أفكاره فى السلطة الدينية قام باستبعادها كركيزة فى فلسفة الأخلاق، بينما عند تحليله لسلطة الضمير الأخلاقى جاءت أفكاره متسقة إلى حد ما على الرغم من أن فلسفته فى الضمير لا تساوى شيئًا إذا ما قورنت بأفكار بتللر Buttler عن الضمير فى فلسفة الأخلاق، من هنا كان يمكن القول على فلسفة رسل أنها فلسفًة سياسيًّة أخلاقيًّة من الطراز الثانى، بينما هى فلسفة تحليلية منطقية، أو رياضية علمية من الطراز الأول، ولكن رسل قام بالتفرقة بين اتجاهه فى الأخلاق واتجاهه فى المنطق.